المؤتمر العلمي الدولي الأول
لكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بسوهاج

جهود الدكتور محمد الأمين الخضري
في خدمة قضايا الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم
كتاب: "الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ" أنموذجاً

إعداد
د. عبد الحكيم الزُّبيدي
الإمارات العربية المتحدة

١٤٤٣ هـ / ٢٠٢٢م

د. عبد الحكيم الزُّبيدي
الإمارات العربية المتحدة
البريد الإلكتروني: dr.alzubaidi@gmail.com
ت: ٠٠٩٧١-٥٠٠٦١٨٠٦٥٦

ملخص البحث

"جهود الدكتور محمد الأمين الخضري في خدمة قضايا الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم كتاب: "الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ" أنموذجًا".

د. عبد الحكيم الزُّبيدي.

لم يحظ الأستاذ الدكتور محمد الأمين الخضري-رحمه الله- بما يستحقه من اهتمام الدارسين وعنايتهم رغم أنه من علماء البلاغة الأفذاذ الذين قصروا جهودهم في أبحاثهم على خدمة كتاب الله العزيز وتدبره والتفكر في إعجازه البياني؛ لذلك جاءت هذه الدراسة المتواضعة للفت النظر إلى جهوده في خدمة قضايا الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، وذلك من خلال استعراض كتابه: "الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن الكريم".

وتنقسم الدراسة إلى مقدمة حول أهمية البحث، وثلاثة مباحث هي:

- نبذة مختصرة عن سيرة الدكتور الخضري العلمية.
- عرض ملخص لكتاب الدكتور الخضري: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ.
- منهج الدكتور الخضري في دراساته حول إعجاز القرآن الكريم من خلال كتاب "الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ".
- ثم ختمت الدراسة بخاتمة تلخص أهم نتائجها.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز البياني، القرآن الكريم، البلاغة، الخضري.

مقدمة

يعد الأستاذ الدكتور محمد الأمين الخضري، رحمه الله، من علماء البلاغة الأفذاذ الذين قصروا جهودهم في أبحاثهم على خدمة كتاب الله العزيز وتدبره والتفكر في إعجازه البياني، وذلك منذ أطروحته للدكتوراه حتى آخر كتاب صدر له قبل وفاته رحمه الله، جمع فيه أبحاثه المنشورة في المجلات العلمية. ورغم ذلك فإنه، في رأيي، لم يحظ بما يستحقه من اهتمام الدارسين وعنايتهم، ولم تُكتب عنه إلا دراسات يسيره، وحقُّه أن يُخصص له مؤتمر علمي خاص للحديث عن مؤلفاته وجهوده في خدمة كتاب الله وبيان أسرار إعجازه البياني. لكل ذلك، رأيت أن أقدم هذه الدراسة المتواضعة للفت النظر إلى جهود الدكتور الخضري رحمه الله وأجزل له المثوبة.

الدراسات السابقة:

قليلة هي الدراسات التي تناولت جهود الدكتور الخضري، فيما اطلعت عليه. ولعل أولها وأهمها وأشملها، في رأيي، هي دراسة الأستاذ الدكتور حسن عبد الرحمن سليم: جهود الدكتور محمد الأمين الخضري في خدمة قضايا الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، التي قدمها في المؤتمر العلمي الدولي الثالث: دور الأزهر في النهوض بعلوم اللغة العربية وآدابها والفكر الإسلامي، الذي نظمته كلية اللغة العربية بالزقازيق، عام ٢٠١٢م، وقد جاء في ثلاثة مباحث هي: (١) المسيرة العلمية للدكتور الخضري، (٢) منهج الدكتور الخضري في دراساته حول إعجاز القرآن الكريم، (٣) من قضايا الإعجاز البلاغي: إيقاع الفواصل القرآنية نموذجاً. وللدكتور سليم سلسلة حلقات نُشرت في مجلة الأزهر ابتداء من عدد يناير ٢٠٢٠م، بعنوان: منهج الدكتور الخضري في دراساته حول إعجاز القرآن الكريم،

ولعلها مستلة من هذه الدراسة.

وهناك مقالة الدكتور محسن بن علي الشهري، بعنوان: قراءة في كتاب: الواو ومواقعها في النَّظْم القرآني، للدكتور محمد الأمين الخضري، منشورة في موقع تفسير للدراسات القرآنية، في ٩ يونيو ٢٠٢١م. وفيما عدا دراسة الدكتور سليم ومقالة الدكتور الشهري، لم أجد من كتب عن جهود الخضري، فيما اطلعت عليه.

منهج الدراسة:

استفدت في دراستي من دراسة الدكتور حسن عبد الرحمن سليم القيّمة واتبعت منهجه، حيث قسّمت الدراسة إلى مقدمة وثلاثة مباحث هي: (١) نبذة مختصرة عن سيرة الدكتور الخضري العلمية، (٢) عرض ملخص لكتاب الدكتور الخضري: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، (٣) منهج الدكتور الخضري في دراساته حول إعجاز القرآن الكريم من خلال كتاب الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، ثم ختمت الدراسة بخاتمة تلخص أهم نتائجها.

المبحث الأول

سيرة علمية مختصرة للدكتور الخضري:

ولد الدكتور محمد الأمين الخضري عام ١٩٤٦م، والتحق في صباه بالمعهد الديني بالأقصر، ثم أكمل دراسته الثانوية بالمعهد الديني بقنا. ثم التحق بكلية اللغة بالعربية بالأزهر الشريف بالقاهرة، وتخرج عام ١٩٧٤م بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف، وعين معيداً في قسم البلاغة والنقد، وحصل على الماجستير عام ١٩٨٠م عن رسالته (التشبيه والاستعارة بين الإفراد والتركيب)، وحصل على الدكتوراه عام ١٩٨٣م بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى مع التوصية بطبع الرسالة على نفقة الجامعة، وكان بحثه بعنوان (الواو ومواقعها في النظم القرآني). عمل في قسم البلاغة والنقد بجامعة الأزهر، كما عمل في جامعات عربية مختلفة في السودان والسعودية والإمارات[١]. توفي إلى رحمة الله في تاريخ ٢٣ أبريل سنة ٢٠١٩م.

ترك الدكتور الخضري عدداً من المؤلفات العلمية المهمة التي تتعلق بدراسة قضايا الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، وهي:

١. من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٩٨٩م
٢. من بيان القرآن– دراسة للتشبيه والمجاز، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٩٨٩م

---

[١]– سليم، حسن عبد الرحمن: جهود الدكتور محمد الأمين الخضري في خدمة قضايا الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، المؤتمر العلمي الدولي الثالث: دور الأزهر في النهوض بعلوم اللغة العربية وآدابها والفكر الإسلامي، كلية اللغة العربية بالزقازيق، ٢٠١٢م، ص ص ١٤٣٥–١٤٣٦

٣. الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن الكريم، مطبعة الحسين، القاهرة، ١٩٩٣م
٤. من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم (الفاء–ثم)، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٩٩٣م
٥. من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية د. ن، ١٩٩٤م
٦. من بلاغة القرآن، مطبعة الحسين، القاهرة، ١٩٩٦م
٧. الإعجاز في نسق القرآن: دراسة للفصل والوصل بين المفردات، مكتبة زهرا الشرق، القاهرة، ٢٠٠٢م
٨. الواو ومواقعها في النظم القرآني، مكتبة وهبه، القاهرة، ٢٠١٦م
٩. دراسات في إعجاز القرآن (مجموعة أبحاث)، مكتبة وهبه القاهرة، ٢٠١٧م

المبحث الثاني

عرض ملخص لكتاب الدكتور الخضري: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن الكريم

بدأ الدكتور الخضري كتابه بمقدمة شرح فيها أن "القرآن الكريم يتفرد بأن قارئه أو سامعه مهما كانت فطنته ودرجة تيقظه لا يستطيع أن يسبق النص القرآني باستشرافه لمعانيه وأغراضه قبل أن تطرق ألفاظه سمعه، كما هو شأن أصحاب الأذواق ممن طالت معايشتهم لأساليب الفصحاء، وأحكموا طرائق التعبير في نهج الشعراء والأدباء، فهم كثيراً ما تلتقط أذهانهم أعجاز الأبيات من صدورها، وتقفز إلى أخلادهم مقاطع الكلام من مطالعه..."[1] وذلك لأن الله أحكم إعجاز نظمه، حيث "تجد القرآن ينتقل بك سريعاً بين الماضي والحاضر، ويجوز بك أسوار الواقع إلى آفاق المستقبل، ويقدم ويؤخر على غير ترقب، ويعدل بقارئه من التكلم إلى الغيبة، ويخاطبه وهو يتحدث عن سواه، إلى غير ذلك من وجوه التصرف، مما يجعله دائم التوقع لمغايرة في النظم، تتوالد بها المعاني، وتتكاثر بها الأغراض"[2]. ثم يدخل في التعريف بموضوع الكتاب قائلا: "والعدول عن الواحد إلى الجمع، أو مخاطبة الجماعة بخطاب الواحد هو لون من التصرف في الصيغ، وفن من فنون الخروج عن ظواهر الأحوال، يفجأ القارئ بما يفتح باصرته على لون من سامق البيان،

---

[1]- الخضري، محمد الأمين: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن الكريم، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٣

[2]- المرجع السابق، ص ٤

ويفتح بصيرته على أقباس من أسرار الإعجاز..." [١].

أما التوطئة فقد خصصها المؤلف للحديث عن وعي العرب بجهات تصرف الكلام من خلال تفريقهم في استخدام جمع القلة وجمع الكثرة، ووضح أن بعض الباحثين المعاصرين يحاول تجريد العربية من هذه الميزة ويسخر من النحاة في تمييزهم بين صيغ القلة والكثرة، ومنهم الدكتور إبراهيم أنيس، ويناقش أقوالهم ويرد عليها، ومن ذلك رده على الدكتور إبراهيم أنيس بقوله: "أما قوله بأن القرآن ملئ بصيغ القلة التي أريد بها الكثرة، وصيغ الكثرة التي أريد بها القلة فهو صحيح، لكنه لا ينقض ما قاله النحاة من تبادل الصيغ مواضعها لحكمة يدسها المتكلم في ثنايا الصيغ المستعارة لغيرها، وليس ذلك دليل ضعف الرأي، لأن الخروج عن مقتضى الظاهر في صيغ الألفاظ نهج مسلوك في لسان العرب"[٢]، ويرد أيضاً على الدكتور محمد أبو الفتوح شريف، الذي قال: "ومن ناحية أخرى نجد القرآن الكريم وهو أعلى وأرفع نماذج الكلام العربي الفصيح قد استخدم بعض أوزان القلة التي زعمها الصرفيون في الدلالة على الكثرة، كما استخدم بعض أوزان الكثرة التي زعموها كذلك في الدلالة على القلة، ما يؤكد انهيار هذه النظرية من أساسها"[٣]، ويرد عليه بتوضيح الملمح البلاغي الذي جعل القرآن الكريم يختار صيغة مكان أخرى، في الآيات التي استشهد بها الدكتور شريف. ويستشهد بآراء علماء البلاغة كابن جني والزركشي والسكاكي وغيرهم.

---

[١] – المرجع السابق، ص ن

[٢] – المرجع السابق، ص ٩

[٣] – المرجع السابق، ص ١٠

قسم الدكتور الخضري كتابه إلى أربعة فصول، هي: (١) وضع المفرد موضع الجمع، (٢) وضع الجمع موضع المفرد، (٣) تعاور الجموع مواقعها، (٤) تناسق الصيغ في مشتبه النظم.

وسنتناولها باختصار في الصفحات القادمة، مع التمثيل لكل قسم بمثال واحد فقط، ليتضح المقصود منه.

الفصل الأول

وضع المفرد موضع الجمع:

وتناول فيه الدكتور الخضري عدة توجيهات لاستخدام المفرد في موضع الجمع، منها:

الإفراد في مقام التعذيب يجسد الإحساس بالوحدة:

يقول الدكتور الخضري: "يتكرر في القرآن الكريم كثيراً إفراد الأسماء والضمائر في الحديث عن عذاب الكفار والمجرمين، وجمعها في وصف ثواب المؤمنين والطائعين، وكأنه يرمز بالإفراد إلى مضاعفة ألم العقاب وإطباق الشعور بالوحدة والاغتراب على أنفاس المعذبين"[1]. من ذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ* وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (النساء، ١٣-١٤)، يقول الدكتور الخضري: "فقد جمع (خالدين) في وصف ثواب الطائعين وأفرده في وصف عقاب العاصين، فكان في الجمع تكريم بالأنس وفي الإفراد تعذيب بالوحشة والاغتراب"[2].

التوحيد للدلالة على وحدة الحق:

يقول الدكتور الخضري: "تؤدي صيغة الإفراد دوراً هاماً في الإفصاح عن وحدة الحق، وتوحد السبيل الموصلة إليه، في مقابلة تعدد الباطل وأهواء أتباعه، وتشعب

---

[1]- المرجع السابق، ص ٢٧

[2]- المرجع السابق، ص ٢٩

مسالكه، وحيرة أصحابه"[١]. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(الأنعام، ١٥٣)، يقول الدكتور الخضري: "إفراد الصراط يشير إلى أن منهج الله تعالى واحد، والسائر على طريقه لا تتوزعه الأهواء، ولا تضل به المسالك، وجمع السبل يوجي إلى تعدد طرق الغواية والضلال، والسائر عليها تلعب برأسه الهواجس وتتناعه الظنون والأوهام"[٢].

وحدة الهدف واتحاد الغاية:

يقول الدكتور الخضري: "ومما خولف فيه ظاهر الحال بالعدول إلى الإفراد في مقام الجمع قوله تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان، ٧٤)، إذ الداعون جمع، ومقتضى الظاهر أن يقال: (واجعلنا للمتقين أئمة)، إذ الداعون جمع، لكن لما كان المتقون يصدرون في إمامتهم عن مشكاة واحدة، ويسعون إلى هدف واحد ويستنيرون ببصيرة تستمد هديها من وحي السماء، جاء توحيد الإمام منادياً بوحدة دعوة الحق، والتقاء دعاته على طريق واحد"[٣].

الكفر كله ملة واحدة:

يقول الدكتور الخضري: "كثر في القرآن بشكل لافت توحيد العدو في مقامات يقتضي ظاهرها الجمع، فيما أربى على العشرين موضعاً، في حين جاء مطابقاً

---

[١]- المرجع السابق، ص ٣٢

[٢]- المرجع السابق، ص ٣٣

[٣]- المرجع السابق، ص ٤٢

لظاهر الحال في سبعة مواضع. وباستقصاء مواضع المخالفة جميعها، نجد القرآن يلفت بهذه المغايرة نظر المسلمين إلى أن الكفر ملة واحدة، وأن أعداء الحق مهما اختلفت مذاهبهم واتجاهاتهم يلتقون حول هدف واحد، هو القضاء على الحق وأهله، وأن ما بينهم من خلافات وعداء يذوب أمام عدوهم المشترك"[1]. من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ (النساء ١٠١).

استعارة المفرد للتقليل والتهوين:

يقول الدكتور الخضري: "كثيراً ما يستعير القرآن الواحد للتقليل من شأن الجمع وتحقير أمره. فمن ذلك إفراد الطفل في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(غافر ٦٧). ورد فيها الطفل مفرداً في مقام التقليل من شأن المخاطبين وتحقيرهم، بعد أن استعظموا إعادتهم بعد موتهم، وتناسوا كيف بدأ الله خلقهم من ماء مهين"[2].

الأفراط بالعكس:

يقول الدكتور الخضري: "مما يدل على ثراء اللغة وقدرتها على تطويع صيغها لاستيعاب المعاني المتناقضة التي تمتليء بها نفوس المتكلمين، أن المفرد الذي استعير آنفاً للدلالة على القلة والتحقير يستعيره القرآن للدلالة على عكس ذلك، فيحمله معنى التكثير والمبالغة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

---

[1] – المرجع السابق، ص ٤٧

[2] – المرجع السابق، ص ٥٧–٥٨

(لقمان ٢٧)، فقد عدل النظم عن اسم الجمع (شجر) إلى المفردة (شجرة) للتكثير والمبالغة، في مقام أريد به وصف كلمات الله تعالى بعدم التناهي"[١].

التوحيد رمز لعدم التفاوت:

يقول الدكتور الخضري: "إذا كان التعدد يرمز إلى تمايز المعدودين، فإن الإفراد يومئ إلى التوحد وعدم التفاوت، وعليه جاء قوله تعالى في وصف الكافرين: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة، ٧)، فقد وحد السمع مخالفاً ما يقضي به ظاهر التناسب من جمعه كما جمعت القلوب والأبصار، إيماء إلى وحدة الأسماع وعدم تفاوتها في إدراك الأصوات، بخلاف القلوب التي تتمايز في إدراكها المعاني الأصوات ومدلولاتها، وقدرتها على الوعي والاختزان. كذلك الأبصار تتفاوت في إدراك المبصرات طبقا لقدرتها على الرصد والتركيز والتقاط دقائق الأجزاء وإعانة المخيلة على تصورها. لذا آثر القرآن إفراد السمع في كل موضع اقتضى جمعه، مما وقع فيه معطوفاً على جمع أو معطوفا عليه جمع"[٢].

التوحيد رمز للانفراد بالحدث:

يقول الدكتور الخضري: "من عجيب أدب القرآن وبلاغة نظمه أن يتخذ من الإفراد وسيلة لتأديب المسلمين بآدابه، وإرشادهم بطرف خفي إلى وجوب التستر والتخفي في مواضع العورات، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن

---

[١]- المرجع السابق، ص ص ٦٧-٦٨

[٢]- المرجع السابق، ص ٦٩

كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾(النساء، ٤٣). ففي الآية أقيم الواحد مقام الجمع مرتين: الأولى في قوله: ﴿وَلاَ جُنُبًا﴾ أي إن أصابتكم الجنابة، وقد عدل عن الجمع (أجناب) أو (مجنبين) للإلماح إلى أن هذا الوصف مما ينفرد به الإنسان عند حدوثه، ويتخفى به ويتستر عند قضاء حاجته مع حليلته، كما يقضي به حياء المؤمن، أو تفرضه آداب الإسلام، بخلاف المعطوف عليه قبله وهو ﴿وأنتم سكارى﴾، والمعطوف عليه بعده وهو المرضى والمسافرون، ممن شأنهم التجمع والتلاقي عند الشرب أو السفر أو نزول المرض بهم"[١]. الموضع الثاني قوله تعالى ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَائِطِ﴾ حيث غوير فيه النظم، وخولف مقتضى الظاهر بأن يقال: (أو جئتم من الغائط)ـ ليكون فيه ضربان من البلاغة، أحدهما: إفراد (أحد) للدلالة على عادة الناس في الانفراد عند قضاء الحاجة، وما يلمح إليه النظم الكريم من وجوب ستر العورة، والتحلي بآداب الإسلام في إخفاء ما لا يحل لأحد الاطلاع عليه"[٢].

الإفراد للتعظيم:

يقول الدكتور الخضري: "من روائع إيثار المفرد على الجمع ما نجده في مجال التذكير بنعم الله تعالى وتعديد آلائه، حيث أورد القرآن النعمة مفردة في سبعة وأربعين موضعاً، ولم ترد مجموعة إلا في ثلاثة مواضع"[٣]. فمن ذلك قول موسى

---

[١]- المرجع السابق، ص ٧٣

[٢]- المرجع السابق، ص ٧٥

[٣]- المرجع السابق، ص ٧٦

عليه السلام في خطابه لبني إسرائيل فيما حكاه القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة ٢٠)، يقول الدكتور الخضري: "يوحد النعمة مع أنه عدّد منها ثلاثاً على سبيل الإجمال، وفي الأخيرة من النعم ما لا يحيط به التفصيل، وهو قوله: ﴿مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ﴾. إن سر إيثار المفرد في كل آيات القرآن–ما عدا المواضع الثلاثة التي سترد في حينها– يكمن في أن إضافة النعمة إلى الله تعالى تكسوها ثوباً من التعظيم، مما يجعل ذكر واحدة منها كافياً في أن يخر المنعم عليه ساجداً لربه شكراً عليها، فكيف بتذكر نعمه كلها أو بعضها؟ كما يؤمئ الإفراد إلى أن الإنسان مهما أطاع ربه وانقطع له وأوغل في عبادته لا يستطيع أن يؤدي حق الشكر على نعمة واحدة، إذ إن التوفيق للطاعة والعبادة هو في حد ذاته نعمة تستدعي الشكر عليها"[١].

إيثار المفرد لرقته وحسن جرسه:

يقول الدكتور الخضري: "لم ترد لفظة الأرض في القرآن إلا مفردة، فإذا ذكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة معها في كل موضع من القرآن، ولما أريد أن يؤتى بها مجموعة قيل: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[٢]. ويضيف الدكتور الخضري قائلاً: "لا شك أن هناك سراً من أسرار الإعجاز وراء إفراد الأرض حيث وقعت في القرآن، ... وكان مقتضى التناسب بين الصيغ أن تجمع الأرض كما جمعت السموات، من مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ

١- المرجع السابق، ص ٧٩

٢- المرجع السابق، ص ٨١

يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾(الطلاق ١٢)، وما أراه هو أن القرآن آثر الإفراد لخفته، بعد أن أقام من القرائن ما يقطع بإرادة الجمع، من الاستغراق بأل الجنسية، وجمع السموات"[١].

[١]- المرجع السابق، ص ٨٤

الفصل الثاني

وضع الجمع موضع المفرد:

إيثار الجمع لخفته وعذوبته:

يقول الدكتور الخضري: "وهذا يؤيد منحى القرآن في اختيار العذب من الألفاظ، والبعد عما لا يحسن جرسه في السمع، ولا يسهل جريانه على اللسان. يشهد لذلك أن في القرآن نظائر كثيرة للجمع (أرجاء) ومفرده (رجا) استعملت جموعاً وأهملت مفرداتها، مثل (آلاء) جمع بمعنى النعم، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن)، ولم يستخدم مفرده وهو (إليّ) أبداً، لأنه لا يعذب كما عذب جمعه، فعدل عنه إلى مرادفه وهو النعمة، ... وليس لذلك تفسير سوى أن القرآن يتخير من الألفاظ أعذبها وأرقها"[1].

استعارة الجمع للتعظيم:

يقول الدكتور الخضري: "وفي مجال تعظيم جرم المكذبين بالرسل يضع القرآن الجمع موضع الواحد ليومئ به إلى عظم ما يرتكبه الناس من الإثم حين يكذبون نبيهم، فهم لا يكذبونه وحده، وإنما يكذبون الرسل جميعاً، مما ينذر بعظيم الانتقام من الله، وقد تكرر ذلك في قصص الأمم الهالكة التي أنزل الله تعالى بها من عذابه ما جعلها عبرة للمكذبين، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾(الشعراء ١٠٥) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء ١٢٣) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾(الشعراء ١٤١) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾(الحجر ٨٠)"[2].

---

[1]- المرجع السابق، ص ص ٩٥-٩٦

[2]- المرجع السابق، ص ١٠٦

العدول إلى الجمع للمبالغة:

يقول الدكتور الخضري: "يعدل القرآن إلى الجمع ليكنّي بدلالته الظاهرة على الكثرة عن قوة الصفة على سبيل المبالغة، وللقرآن في ذلك عجائب لا تتناهى"[١]. من ذلك قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾(المائدة ١١٦). يقول الدكتور الخضري: "حيث دل (الغيوب) بصيغة الجمع على إحاطة الله تعالى بدقائق الأشياء وجلائلها، لتتعانق المبالغة بالجمع مع صيغة المبالغة (علَّام)، في الدلالة على سعة علمه وشموله لما دق وخفي من أسرار خلقة. هذا التناسب بين الصيغتين بدلالاتها على المبالغة قد اطرد في القرآن الكريم في كل ما ورد فيه الغيب جمعاً، وهي أربعة مواضع. والعجيب أن صيغة المبالغة (عَلَّام) لم ترد إلا في هذه المواضع الأربعة، فإذا ما أفرد الغيب أستعمل القرآن معه اسم الفاعل (عالم) كما في قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾(الرعد ٩)، وذلك فن من فنون البيان في مراعاة التناسب بين الألفاظ والمعاني لا تجده يطرد في كلام الناس كما اطرد في البيان المعجز"[٢].

الدلالة على تمكن الوصف:

يقول الدكتور الخضري: "ثمة طريقة أثيرة في الذكر الحكيم يعدل فيها عن الواحد ويسلكه في الجماعة، مبالغة في تأكيد إثبات الصفة لموصوفها، ويكثر ذلك في مقامات التهديد والوعيد، كقوله تعالى على لسان سليمان مهدداً الهدهد: ﴿قَالَ

---

[١]- المرجع السابق، ص ١٠٧

[٢]- المرجع السابق، ص ١١٣

سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(النمل ٢٧)، عدل فيه أولاً عن ظاهر ما يقتضيه التناسب في المقابلة بين الفعلين ليقال: أصدقت أم كذبت؟ ثم عدل ثانياً عن أن يقول: أصدقت أم كنت كاذباً، تعبيراً بالواحد على ظاهر الخطاب إلى الجمع ليجعله واحداً من الكاذبين، مبالغة في إثبات الصفة له، وعده من المعهودين بهذا الوصف الراسخين فيه، وهذا أوجب للعقاب وأبلغ في التخويف والتهديد"[١].

تجنب مواجهة المخاطب بما يكره:

يقول الدكتور الخضري: "اطرد هذا الأسلوب في خطاب الله للأنبياء، عند تحذيرهم مما لا يليق الاتصاف به، فيترك القرآن التصريح إلى الكناية إعراضاً عن تخصيصهم بوصف يكرهونه على طريقته في أدب الخطاب. من ذلك ما خاطب الله به نبيه عليه السلام، محذراً إياه من أساليب أهل الكتاب، وخبث طويّتهم: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾(البقرة ١٤٥) فقد ترك القرآن مخاطبة النبي بالوصف مفرداً، ولم يقل: إنك إذاً لظالم، جرياً على أدب الخطاب في عدم مواجهة المحب بمايكره، وإن كان ما عليه التلاوة أبلغ في الوصف بالظلم من الإفراد، إلا أن الإفراد أقسى في المواجهة وأشد"[٢].

الجمع للإبهام:

يقول الدكتور الخضري: "قد يعمد القرآن الكريم إلى اتخاذ صيغة الجمع والتعبير بها

---

[١]- المرجع السابق، ص ١١٤

[٢]- المرجع السابق، ص ١١٨

عن الواحد للإبهام، وعدم تعيين من يرغب عن ذكرهم بالاسم أو الوصف، إما لعدم الحاجة إلى التعيين، أو ستراً لهم في موقف لوم أو عتاب، أو تحقيراً لهم أوغير ذلك من الأغراض، فيعبر بالجمع ليكون المقصود مغموراً فيه، مستوراً أمره"[١]. ويضيف الدكتور الخضري قائلاً: "من ذلك ما أنزل تأنيباً لحاطب بن أبي بلتعة، حين أرسل إلى قريش كتاباً يخبرهم فيه بنبأ خروج الرسول صلى الله عليه وسلم لفتح مكة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾(الممتحنة ١). ففي خطاب الجماعة وإرادة حاطب إبهام قصد إليه القرآن، ستراً لضعفه، وابتعاداً عن التشهير به، وهو من أصحاب رسول الله الذين حضروا بدراً، وذلك من آداب الخطاب في الذكر الحكيم"[٢].

الجمع يكشف دخائل النفوس:

يقول الدكتور الخضري: "من روائع الإعجاز في صيغة الجمع ما تقوم به من الكشف عن دخائل النفس البشرية، ورصد ما يعتمل فيها من أمانٍ وأوهام. ويكشف الجمع عن لحظة من لحظات الضعف البشري تضطرب فيها النفوس وتهتز الرؤى وتتنامى مشاعر القلق والخوف حتى تنخلع القلوب من صدورها فإذا الشيء الواحد في الأعين أشياء والظن يستحيل ظنونا. قال تعالى تصويراً لما أصاب المسلمين من ذعر حين أطبقت عليهم جيوش الأحزاب في غزوة الخندق: ﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾(الأحزاب ١٠). تكاثر ظنّهم في تخلي الله عنهم وتنامى، وتوزعتهم منازع

---

[١]- المرجع السابق، ص ١٢٠

[٢]- المرجع السابق، ص ١٢٢

الحيرة، ولعبت الهواجس بنفوسهم وقلوبهم. ذلك ما تومئ إليه (الظنون) بصيغة الجمع، ومغايرتها لغالب ما جرى به لسان العرب من إفراد المصدر، بحكم أنه من قبيل اسم الجنس المبهم الدال على القليل والكثير"[١].

زيادة التشنيع:

يقول الدكتور الخضري: "مما جاء فيه الجمع للتشنيع، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا*وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(النساء ١٧-١٨). تأمل كيف قابل القرآن بين قبول توبة من يعمل السوء بجهالة، وبين رفض قبول توبة الذين يعملون السيئات المؤجلين توبتهم إلى الموت، فأفرد (السوء) في جانب من قبل توبتهم، إيحاء بأنهم ليسوا مكثرين من المعاصي دائبين عليها، ثم جمع (السيئات) تشنيعاً على أصحابها وإشارة إلى إكثارهم منها ودوامهم عليها"[٢].

التكثير في الصفة:

يقول الدكتور الخضري: "يستخدم القرآن الجمع ليرمز به إلى كثرة المجموع تفخيماً في مقام الثناء والمدح، وإسجالاً في مقام الذم والتنديم"[٣]. ويضيف قائلاً: "لذلك درج القرآن على استخدام الجمع في الثناء على المؤمنين بعملهم الصالح، كقوله

---

[١]- المرجع السابق، ص ١٢٥

[٢]- المرجع السابق، ص ١٢٨

[٣]- المرجع السابق، ص ١٢٩

تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(العنكبوت ٧)، فلم ترد (الصالحات) مفردة أبداً، ... وفي ذلك تكثير للأعمال الصالحات، تمهيداً لمقابلتها من الله تعالى بواسع مغفرته ورضوانه"[١].

الاشتغال بالجماعة عن الفرد:

يقول الدكتور الخضري: "من بديع أسرار النظم الكريم في العدول إلى الجمع ما ألهمه الله تعالى جار الله الزمخشري في قوله تعالى: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾(النمل٢٨). إذ لا يخفى أن الهدهد مأمور بإلقاء الكتاب إلى بلقيس، التي أخبر عنها الهدهد فيما حكاه الله قبل ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾(النمل ٢٣) والخطاب موجه إليها بدليل قولها: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾(النمل ٢٩) فكان مقتضى الظاهر أن يقال: اذهب بكتابي هذا (فألقه إليها)، لكنه عدل إلى الجمع، إيماء إلى أن سليمان عليه السلام لم يكن شاغله هذه الملكة، ولا ملكها، ولا ما أحاطت به نفسها من هالات المجد، وإنما كان شاغله هو عبادة هؤلاء القوم لغير الله تعالى، وهدفه هو إعادتهم إلى عبادة الواحد الأحد، وما اختصاص الملكة بالكتاب إلا باعتبارها ممثلة لقومها وصاحبة الأمر فيهم، لذا كانت دعوة سليمان إلى الإسلام دعوة عامة ﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾(النمل ٣١) وما كان يسر سليمان أن تؤمن بلقيس ويبقى قومها على كفرهم"[٢].

---

[١]- المرجع السابق، ص ١٣٠

[٢]- المرجع السابق، ص ١٣٢

الفصل الثالث

تعاور الجموع مواقعها

استعارة القلة للكثرة

يقول الدكتور الخضري: "كثيراً ما تستعار صيغة القلة للكثرة لغرض يقصد إليه النظم الحكيم. ومما وضعت فيع صيغة القلة موضع الكثرة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(آل عمران ١٢٣)، فعبر بجمع القلة (أذلة) دون جمع الكثرة: (ذُلان) و(أذلاء) مع أن المخاطبين من المؤمنين الذين حضروا بدراً كانوا فوق الثلاثمائة. استعارت صيغة القلة لتصور ما كان عليه المؤمنون من ضعف الحال وقلة العدة والعتاد مقارنة بعدوهم المتفوق عليهم عدداً وعدة، تذكيراً بفضل الله تعالى الذي أيّدهم بنصره، في حال تقطع كل مقاييس البشر بأنهم سيكونون طعمة لأعدائهم"[١].

استعارة الكثرة للقلة

يقول الدكتور الخضري: "قليلاً ما تستعار صيغة الكثرة للقلة في القرآن الكريم، على عكس استعارة صيغة القلة للكثرة، ولعل أشهر ما تردد على ألسنة الباحثين في صيغ الجموع مثالاً لوضع الكثرة موضع قلة قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾(البقرة ٢٢٨)، فالقروء جمع كثرة، ولها جمع قلة هو (الأقراء) وقد استخدمه الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قوله: (دعي الصلاة أيام أقرائك)، تفسير ذلك أن التكثير أريد به كبح جماح النسوة الطامحات إلى الزواج، القلقات على مستقبلهن والتأكيد على وجوب إتمام العدة قبل أن يتلقين رغبات

---

[١]- المرجع السابق، ص ص ١٥١-١٥٢

الرجال ويتواعدن معهم على الزواج. فاستحالت القلة كثرةً إشعاراً بوجوب الانتظار إلى تمام العدة[١].

تعاور أبنية الكثرة

يقول الدكتور الخضري: "لفت فقهاء العربية النظر إلى فروق دقيقة في الاستعمال بين مباني الجموع المتحدة في دلالتها على الكثرة، مما يشهد بدقة حس العربي وصفاء طبع الناطقين بلغة القرآن. من ذلك الفرق بين (عبيد) و(عباد)، فقد ورد لفظ (العباد) في القرآن سبعاً وتسعين مرة، ومعظمها صريح في دلالته على الطاعة وإخلاص العبودية لله، مثل قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا)(الفرقان ٦٣)"[٢]. ويضيف الدكتور الخضري قائلاً: "أما لفظ العبيد فقد جاء في القرآن الكريم خمس مرات فحسب، واللافت للنظر أنه في المرات الخمس كلها وقع تذييلا بنفي وقوع الظلم من الله على عباده، وفي جميعها استخدمت صيغة المبالغة (ظلام) كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(آل عمران ١٨٢). حيث جاءت جميعها تذييلا لفصل الله تعالى في قضية الكافرين يوم القيامة، والحكم عليهم بما جنت أيديهم كفراً وعصياناً وظلماً للنفس والعباد، وهم في هذا الموقف الذليل ضعفاء لا ناصر لهم ، مجردون من كل حول وقوة، فكان لفظ (العبيد) هو الذي يجسّد ذلّتهم وضعفهم، وعجزهم عن فك رقابهم من عذاب الله، وهو في الوقت نفسه يجسّد عدل الله الذي لا يتناهى حين ينصفهم مع شدة غضبه عليهم ولا يقابل ظلمهم بظلم مثله"[٣].

---

[١]- المرجع السابق، ص ١٦٢

[٢]- المرجع السابق، ص ١٧٦

[٣]- المرجع السابق، ص ١٧٨

الفصل الرابع

تناسق الصيغ في مشتبه النظم

يقول الدكتور الخضري: "ومن عجيب ما تكرر في الذكر الحكيم واطردت غاية النظم فيه إفراداً وجمعاً، مجيء الريح مفردة تارة، كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾(فصلت ١٦) وجمعها تارة أخرى كما في قوله تعالى: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(الجاثية ٥)[1]. ويضيف قائلاً: "وبتتبع المواضع التي ذكرت فيها الريح في القرآن الكريم نجدها قد وردت عشر مرات مجموعة، وهي جميعاً في مواطن الرحمة والخير، وجاءت مفردة تسع عشرة مرة: ثلاث عشرة منها في سياق العذاب بلا خلاف، وموضعان في الريح التي تسير الفلك وقد ذكرنا سر إفرادهما، وثلاثة مواضع في الامتنان على سليمان عليه السلام بتسخير الريح وهي قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾(الأنبياء ٨١)وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) (سبأ ١٢)، وقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ﴾(ص ٣٦) وهذه الريح في المواضع الثلاثة شبيهة بالريح التي تسيّر السفن إذ هي وسيلة انتقال سريعة خارقة أجراها الله لنبيه سليمان، وكما أن الريح إذا تعددت مهابها كانت وبالاً على

---

[1] – المرجع السابق، ص ٢٠٧

السفن وراكبيها، وإعاقة حركتها، فكذلك أرادها الله ريحاً واحدة متصلة تبلغ بسليمان إلى حيث يريد من أرض الله، وهذا هو سر إفرادها. والموضع الأخير جاء على سبيل استعارة الريح للقوة والوحدة في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(الأنفال ٤٦) ولا يصلح في مكانها أن تجيء الريح جمعاً لأنها تؤدي بتعددها إلى عكس المراد"[١].

[١]- المرجع السابق، ص ص ٢٠٩-٢١٠

المبحث الثالث

منهج الدكتور الخضري في دراساته حول إعجاز القرآن الكريم من خلال كتاب الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ

شغل الدكتور محمد الأمين الخضري، رحمه الله، نفسه بالبحث في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، منذ أطروحته للدكتوراه التي كانت بعنوان: "الواو ومواقعها في النظم القرآني". يقول الدكتور الخضري في فاتحة كتابه "الإعجاز في نسق القرآن": "فقد عاهدت الله منذ أن هداني إلى طريق العلم واختار لي ميدان البحث في أشرف العلوم المتعلقة بلغة كتابه الحكيم، عاهدت الله أن يكون القرآن مقصد أبحاثي، ومحور دراساتي وموجه أفكاري وقراءاتي، إيماناً مني بأن المكتبة البلاغية والمشتغلين بعلوم البلاغة لا يفيدون من عمل علمي مثلما يفيدون من دراسة تتعلق بنظم القرآن الكريم، وتستكشف أسرار الإعجاز فيه"[١].

وقد نهج الدكتور الخضري منهجاً واضحاً في بحوثه المتعلقة بدراسة قضايا الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، ويتجلى هذا المنهج في المعالم الآتية، كما حددها الدكتور سليم في دراسته القيمة، وسنتناول ما يؤيدها من كتاب (الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ):

---

[١]- الخضري، محمد الأمين: الإعجاز في نسق القرآن، دراسة للفصل والوصل بين المفردات، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٣

١. **التركيز على اختيار الموضوعات الدقيقة**:

يركز الدكتور الخضري على اختيار الموضوعات الدقيقة التي تحتاج في دراستها إلى تأنٍّ وطول معايشة مع النص القرآني، للكشف عن أسرار العدول بعيداً عن تقعيد النحاة وتنظير البلاغيين[١]. يؤكد ذلك اختياره موضوع الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، الذي تقل فيه الدراسات. يقول الدكتور الخضري في مقدمة كتابه: "والعدول عن الواحد إلى الجمع أو مخاطبة الجماعة بخطاب الواحد هو لون من التصرف في الصيغ وفن من فنون الخروج عن ظواهر الأحوال، يفجأ القارئ بما يفتح باصرته على لون من سامق البيان ويفتح بصيرته على أقباس من إسرار الإعجاز"[٢]. ثم يتساءل قائلاً: "هذا الفن من فنون المجاز وهذا الضرب من ضروب الإيجاز وذلك اللون من ألوان الخروج على خلاف ظواهر الأحوال، أين حظه في حقل الدراسة البلاغية؟؟ وهذا الفيض من أسرار الإعجاز ما نصيبه من الدراسات القرآنية؟ ذلك ما تجيب عليه هذه الدراسة من خلال تتبع ما خالف الظاهر من صيغ الإفراد والجمع في القرآن الكريم والكشف عن أسرار الإعجاز فيه"[٣].

---

[١]- سليم، حسن عبد الرحمن: جهود الدكتور محمد الأمين الخضري في خدمة قضايا الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ١٤٤٢

[٢]- الخضري، محمد الأمين: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، مرجع سابق، ص ٤

[٣]- المرجع السابق، ص ٥

٢. **الانطلاق من حيث انتهى الأقدمون**:

لا ينطلق الدكتور الخضري في دراساته من فراغ، بل يطّلع ويستوعب ما قاله السابقون، ويستفيد منه ويضيف إليه وينطلق من حيث انتهوا إليه في دراساتهم[١]. يقول الدكتور الخضري: "أما التفاسير فقد كانت طويلة الباع في الكشف عن أسرار الإعجاز فيما تبادلت فيه المفردات والجموع مواقعها، وتناثرت في ثناياها فرائد النكات التي جادت بها قرائح أصحاب الأذواق الرفيعة من المفسرين، وكانت بحاجة إلى من ينظّمها بعد أن يجمع شتاتها ويقيد أوابدها، ويضيف إليها ما يفتح الله به عليه مما لم تقع عليه أيدي هؤلاء الأعلام"[٢].

٣. **الاستعانة بالمنهج الإحصائي**:

يتتبع الدكتور الخضري ورود بعض المواد اللغوية في القرآن الكريم لبيان منهج القرآن في استخدام هذه المادة والكشف عن أسرار التعبير بها، مستعيناً بالمنهج الإحصائي من حيث تكرار ورود تلك الصيغة أو تلك المادة حتى يخرج حكمه مؤسساً على عموم ما ورد في القرآن الكريم[٣]. فمن ذلك قوله: "أورد

---

[١]- سليم، حسن عبد الرحمن: جهود الدكتور محمد الأمين الخضري في خدمة قضايا الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ١٤٤٣

[٢]- الخضري، محمد الأمين: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، مرجع سابق، ص ٢٢

[٣]- سليم، حسن عبد الرحمن: جهود الدكتور محمد الأمين الخضري في خدمة قضايا الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ١٤٤٤

القرآن النعمة مفردة في سبعة وأربعين موضعاً، ولم ترد مجموعة إلا في ثلاثة مواضع"[١]. ويقول: "لا شك أن هناك سراً من أسرار الإعجاز وراء إفراد الأرض حيث وقعت في القرآن. وقد وردت إحدى وستين وثلاثمائة[٢] مرة، من بينها مائة وستة وسبعون موضعاً اقترنت فيها بالسموات مجموعة، وكان مقتضى التناسب بين الصيغ أن تجمع الأرض كما جمعت السموات"[٣]. وقوله: "وقد استعمل القرآن الألباب مجموعة ست عشرة مرة، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾(الرعد ١٩)"[٤]. ويقول: "جاء الدبر جمعاً في القرآن أربع عشرة مرة[٥]، في حين جاء مفرداً خمس مرات فقط يتعين في جميعها الإفراد ما عدا هذه الآية موضع حديثنا"[٦].

١- الخضري، محمد الأمين: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، مرجع سابق، ص ٧٦

٢- كذا في الأصل، والصواب أنها وردت ٤٦١ مرة، أنظر: عبد الباقي، محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٤هـ، ص ص ٢٦-٣٣

٣- الخضري، محمد الأمين: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، مرجع سابق، ص ٨١

٤- المرجع السابق، ص ٨٩

٥- كذا في الأصل والصواب (١٣) مرة، أنظر: عبد الباقي، محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٢٥٣

٦- الخضري، محمد الأمين: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، مرجع سابق، ص ٥٥

ويقول: "يشهد لذلك أن في القرآن نظائر كثيرة للجمع (أرجاء) ومفرده (رجا) استعملت جموعاً وأهملت مفرداتها، مثل (آلاء) جمعاً بمعنى النعم التي وردت في أربعة وثلاثين موضعاً. منها قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن)، وقد تكرر في سورة الرحمن ثلاث عشرة[1] مرة، ولم يستخدم مفرده وهو (إليّ) أبداً، لأنه لا يعذب كما عذب جمعه، فعدل عنه إلى مرادفه وهو النعمة التي وردت في القرآن سبعة وأربعين مرة، وليس لذلك تفسير سوى أن القرآن يتخير من الألفاظ أعذبها وأرقها"[2]. ويقول: "فلم ترد (الصالحات) مفردة أبداً مع تكرر ورودها جمعاً اثنين وستين مرة في الذكر الحكيم"[3]. ويقول: "فقد ورد لفظ (العباد) في القرآن سبعاً وتسعين مرة، ومعظمها صريح في دلالته على الطاعة وإخلاص العبودية لله، .. أما لفظ العبيد فقد جاء في القرآن الكريم خمس مرات"[4]. ويقول: "وبتتبع المواضع التي ذكرت فيها الريح في القرآن الكريم نجدها قد وردت عشر مرات مجموعة، وهي جميعاً في مواطن الرحمة والخير، وجاءت مفردة تسع عشرة مرة"[5].

---

[1]- كذا في الأصل والصواب (٣١) مرة، أنظر: عبد الباقي، محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٦٠٠

[2]- الخضري، محمد الأمين: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، مرجع سابق، ص ٩٥-٩٦

[3]- المرجع السابق، ص ١٣٠

[4]- المرجع السابق، ص ١٧٨

[5]- المرجع السابق، ص ٢٠٩-٢١٠

٤. **الاعتماد على السياق**:

يولي الدكتور الخضري عناية خاصة بالسياق ويعتمد عليه في بيان سر الاختصاص[١]. فمن ذلك قوله في معرض موازنته بين جمع السلامة المعبر به عن القلة (النبيين) في قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾(البقرة ٦١) وجمع الكثرة (الأنبياء) في قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾(آل عمران ١١٢) فيقول: "إن المتأمل في سياق الآيتين يبهره هذا الإحكام البديع الناطق بإعجاز الكتاب الحكيم في وضع الصيغة موضعها الملائم. فالحديث في آية البقرة جاء في سياق الإخبار عن تمرد بني إسرائيل وعصيانهم في عهد نبيهم موسى عليه السلام كما يتضح من صدر الآية: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى... ﴾ حيث وجه الخطاب للمعاصرين لموسى، .... ولم يكن قد طال بهم العهد إلى زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) كما هو شأن المتحدث عنهم في آية آل عمران، حيث جاء في سياق خطاب الله لأمة محمد عليه السلام ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى﴾ ليطمئنهم على أن من عاصرهم من اليهود لن يكون لهم الغلبة عليهم. فكأن بُعد ما بين عصري موسى ومحمد عليهما السلام مستلزماً كثرة من قتل من الأنبياء بعد موسى عليه السلام، لذا عبر بجمع القلة في خطاب المعاصرين لموسى حيث لم

---

[١]- سليم، حسن عبد الرحمن: جهود الدكتور محمد الأمين الخضري في خدمة قضايا الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ١٤٥٠

يكن قد استحر القتل بالأنبياء كما استحر من بعده حتى عصر محمد عليه السلام، مما ينبئ عن استمرار هذه الجريمة في أعقابهم وكثرة عدوانهم على أنبيائهم مخالفين بذلك كل شرائع الحق لا شريعة موسى وحدها وهو السر الذي من أجله نكّر الحق في آية آل عمرن ليشيع هذا التنكير جواً من المبالغة في ظلمهم وعدوانهم يتناسب مع صيغة الكثرة في جمع الأنبياء"[١].

٥. **الإشادة بجهود علماء البلاغة وأئمة اللغة**:

يشيد الدكتور الخضري في ثنايا كتابه بجهود علماء البلاغة وأئمة اللغة في الكشف عن أسرار الإعجاز في النسق القرآني من خلال تناول مسائل البلاغة وقضايا اللغة كابن الأثير وابن جني[٢]. يقول الدكتور الخضري، عند الحديث عن توجيه إفراد الطفل في قوله تعالى: (ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلا)(غافر ٦٧): "لقد كان ابن جني أكثر تحليقاً في سماء البلاغة القرآنية حين كشف عن وجّه الحسن في إفراد الطفل قائلاً: "وحسن لفظ الواحد هنا لأنه موضع تصغير لشأن الإنسان وتحقير لأمره، فلاق به ذكر الواحد، لقلته عن الجماعة"[٣]. ونقل الدكتور الخضري عن ابن الأثير قوله إن (الأرض) وردت في القرآن الكريم مفردة ولم ترد مجموعة أبداً، وفي الموضع الذي قصد فيه إلى بيان عدد

---

[١]- الخضري، محمد الأمين: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، مرجع سابق، ص ١٤٤

[٢]- سليم، حسن عبد الرحمن: جهود الدكتور محمد الأمين الخضري في خدمة قضايا الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ص ١٤٥٢-١٥٥٣

[٣]- الخضري، محمد الأمين: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، مرجع سابق، ص ص ٥٨-٥٩

الأرضين غيّر القرآن طريقة السبك ليتحاشى ذكر الجمع فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾(الطلاق ١٢) مما يؤكد أن القرآن يعمد إلى تجنب هذا الجمع ويتحاشاه[١].

٦. **الإشادة بجهود أئمة المفسرين**:

كذلك يشيد الدكتور الخضري بجهود أئمة المفسرين الذين أفاد من توجيهاتهم كثيراً في بحوثه خاصة الزمخشري[٢]، الذي يقول الدكتور الخضري عنه: "من بديع أسرار النظم الكريم في العدول إلى الجمع ما ألهمه الله تعالى جار الله الزمخشري في قوله تعالى: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾(النمل٢٨). إذ لا يخفى أن الهدهد مأمور بإلقاء الكتاب إلى بلقيس، التي أخبر عنها الهدهد فيما حكاه الله قبل ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾(النمل ٢٣) والخطاب موجه إليها بدليل قولها: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾(النمل ٢٩) فكان مقتضى الظاهر أن يقال: اذهب بكتابي هذا (فألقه إليها)، لكنه عدل إلى الجمع، إيماء إلى أن سليمان عليه السلام لم يكن شاغله هذه الملكة، ولا ملكها، ولا ما أحاطت به نفسها من هالات المجد، وإنما كان شاغله هو عبادة

---

[١]- المرجع السابق، ص ص ٨١-٨٢

[٢]- سليم، حسن عبد الرحمن: جهود الدكتور محمد الأمين الخضري في خدمة قضايا الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ١٤٥٥

هؤلاء القوم لغير الله تعالى، وهدفه هو إعادتهم إلى عبادة الواحد الأحد، وما اختصاص الملكة بالكتاب إلا باعتبارها ممثلة لقومها وصاحبة الأمر فيهم، لذا كانت دعوة سليمان إلى الإسلام دعوة عامة ﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾(النمل ٣١) وما كان يسر سليمان أن تؤمن بلقيس ويبقى قومها على كفرهم، وهذا ما تنبه له الزمخشري في تفسيره"[١]. كذلك أشاد الدكتور الخضري بالشهاب الخفاجي في توجيه إفراد النعمة في مقام الجمع: "لقد نقل الشهاب الخفاجي عن بعض الفضلاء ما نراه الوجه الأليق بالنظم الكريم في إيثاره الإفراد على الجمع"[٢]. كما أشاد به وبأبي السعود عند توجيه إفراد (أحد) في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَائِطِ﴾(النساء، ٤٣): "وهذا الوجه مما وقع عليه الشهاب الخفاجي، حيث قال: "وفي ذكر (أحد) دون غيره إشارة إلى أن الإنسان ينفرد عند قضاء الحاجة كما هو دأبه وأدبه"، وقوله: "والضرب الثاني: ما في (أحد) من الإيهام تجنباً لمواجهة المخاطبين بما يستهجن ذكره، وإلى هذا أشار أبو السعود"[٣]. وكذلك أشاد الدكتور الخضري بصاحب المنار في مواطن كثيرة، كما في قوله عند الحديث عن توجيه إفراد السمع، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ﴾(الملك، ٢٣): "وخير ما قيل في سر إفراد السمع، ما

---

[١]- الخضري، محمد الأمين: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، مرجع سابق، ص ١٣٢

[٢]- المرجع السابق، ص ٧٩

[٣]- المرجع السابق، ص ٧٥

نقله صاحب المنار عن الإمام محمد عبده: "وأنا أرى في مسألة هذا الجمع والإفراد رأياً آخر، إذ لو صح ما قيل فإن البصر أيضاً مصدر، فلماذا جمعه؟، والذي أراه أن العقل له وجوهٌ كثيرة في إدراك المعقولات، فليس الناس فيه سواء، فجمع لاختلاف الناس فيه، وأنواع تصرفهم في وجوهه بخلاف السمع، فإن أسماع الناس تتساوى في إدراك المسموعات، فلا تتشعّب تشعّب العقول في إدراك المعقولات، وأما الأبصار فهي مثل العقول في التشعّب وأعظم معين للعقول في إدراكها، لأن أنواع المبصرات كثيرة، فتعطي للعقول مواد كثيرة والسمع لا يدرك إلا الصوت"[١].

٧. مناقشة آراء السابقين:

رغم اعتراف الدكتور الخضري بجهود العلماء السابقين واعتماده عليها في كثير من التوجيهات، إلا أنه لا يسلّم بكل ما ذهبوا إليه، بل نراه يناقش آراءهم ويرد عليها، ويوازن بينها ويختار الأرجح منها[٢]. فمن ذلك رده على قول الألوسي: "ومن اللطائف أن الظلمة حيثما وقعت في القرآن وقعت مجموعة والنور حيثما وقع مفرداً، ولعل السبب هو أن الظلمة وإن قلت تستكثر والنور وإن كثر يستقل ما لم يضر، وأيضاً كثيراً ما يشار بهما إلى نحو الكفر والإيمان، والقليل من الكفر كثير، والكثير من الإيمان قليل، فلا ينبغي الركون

---

[١]- المرجع السابق، ص ٧٠

[٢]- سليم، حسن عبد الرحمن: جهود الدكتور محمد الأمين الخضري في خدمة قضايا الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ١٤٥٨

إلى قليل من ذلك، ولا الاكتفاء من هذا"[١]. يرد عليه الدكتور الخضري قائلاً: "وأحسب أن في هذا الوجه من التكلف ما يجعله دون الأول، والوجه عندي أن جمع الظلمات شأنه شأن جمع السبل في التعبير عن تشعب طرق الضلال، وتوحيد النور كتوحيد السبيل والولي في الإيماء إلى وحدة الحق. يقول ابن قيم الجوزية: "والمقصود أن طريق الحق واحد، إذ مرده إلى الله الملك الحق، وطرق الباطل متشعبة متعددة"[٢]. ومن ذلك أيضاً مناقشته لأقوال العلماء في توحيد اليمين وجمع الشمائل في قوله تعالى:﴿أَوَلَم يَرَواْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيء يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدا لِّلَّهِ وَهُم دَٰخِرُونَ﴾ (النحل: ٤٨)، واختيار الأرجح منها، يقول الدكتور الخضري: "وقد جمع الألوسي من الآراء وأضاف إليها ما فاق العشرة. وخير ما قيل –من وجهة نظري– ما نقله أبو حيان عن ابن الصائغ من استعارة اليمين والشمائل لمشرق الشمس ومغربها: أفرد وجمع بالنظر إلى الغايتين، لأن ظل الغداة يضمحل حتى لا يبقى منه إلا اليسير، فكأنه في جهة واحدة، وهو بالعشي على العكس، لاستيلائه على جميع الجهات، فلحظت الغايتان في هذه الآية، هذا من جهة المعنى، وفيه من جهة اللفظ المطابقة، لأن (سُجُّدًا) جمع، فطابقه جمع الشمائل لاتصاله به، فحصل في الآية مطابقة اللفظ والمعنى ولحظهما معاً وتلك غاية الإعجاز"[٣]. ثم يذكر سبب

---

[١]– الخضري، محمد الأمين: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، مرجع سابق، ص ٣٦

[٢]– المرجع السابق، ص ص ٣٦–٣٧

[٣]– المرجع السابق، ٤١

ترجيحه لهذا التوجيه قائلاً: "وسر ترجيحي لهذا الوجه أمران: أولهما: أنه يتجاوب مع قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرضِ طَوعا وَكَرها وَظِلَٰلُهُم بِٱلغُدُوِّ وَٱلأَصَالِ﴾(الرعد: ١٥) فجعل سجود الظلال مقترناً بمشرق الشمس في أول النهار، وبمغربها في رحلة الغروب، والثاني: إفراد الغدو وجمع الآصال تكثيراً للظلال في نهاية النهار، فكان إيثار الإفراد في اليمين والغدو، وجمع الشمائل والآصال سائراً إلى غاية واحدة، هي تكاثر الظلال في رحلة الغروب، واضمحلالها في رحلة الشروق، وهو على ما قال ابن الصائغ سر بديع من أسرار الإعجاز"[١].

كذلك لم يقبل قول الشهاب في توجيه إفراد (رفيقا) في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقا﴾(النساء: ٦٩) يقول الشهاب: "ولم يجمع لأن فعيلا يستوي فيه الواحد وغيره، أو اكتفاء بالواحد عن الجمع لفهم المعنى، وحسن وقوعه في الفاصلة"[٢]. ويرد الدكتور الخضري قائلاً: "لا نقنع بأن مراعاة الفاصلة وحدها هي التي دعت إلى الإفراد،.. والقول بالاكتفاء بفهم معنى الجمع من الواحد ليس سوى تصحيح للإفراد"[٣]. ويرى الدكتور الخضري أن التوجيه الأفضل لإفراد (رفيقاً) هو أن:

---

[١]- المرجع السابق، ٤١

[٢]- المرجع السابق، ٤٢

[٣]- المرجع السابق، ٤٣

"وحدة الهدف والالتقاء على كلمة الله الصادرة من الحق هي التي جعلت الرفقاء في دار الحق بامتزاج أرواحهم وصفاء نفوسهم رفيقاً واحداً"[١]. كذلك يرد على أبي السعود في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾(الأنبياء: ٨)، يقول الدكتور الخضري: "لا أرى في القول بأن الإفراد لإرادة الجنس المنتظم للكثير أو بأن هناك مضافاً محذوفاً تقديره: ذوي جسد، لا أرى في مثل ذلك إلا تبريراً لصحة المفرد، وهو دون ما نقصد إليه من الكشف عن بلاغة الإفراد في موضع الجمع، ... فكما أنهم أرسلوا لغاية واحدة، وأنزل عليهم كتاب تتحد أصوله، فهم جسد واحد ائتلافاً واتفاق كلمة وتوحد غاية"[٢].

ويقول الدكتور الخضري في توجيه توحيد (العدو): "وقد كان الرضي رحمه الله في شرحه للكافية أطول عنقاً وهو يرمق سماء الذكر الحكيم حين قال: "وقد يقع المفرد موقع الجمع، كقوله تعالى: ﴿ويكونون عليكم ضدا﴾ وقوله تعالى ﴿وهم لكم عدو﴾ وذلك لجعلهم كذات واحدة في الاجتماع والترافد"، وهذا ما وجه به الزمخشري إفراد الضد في قوله تعالى: ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا﴾، "لاتفاق كلمتهم وأنهم كشيء واحد لفرط تضامنهم وموافقتهم"[٣]. ثم يقول الدكتور الخضري: "هذا هو الوجه،

---

[١]- المرجع السابق، ٤٢

[٢]- المرجع السابق، ٤٧

[٣]- المرجع السابق، ٥٠

وبمثله يجب أن يقال في إفراد العدو لاتحادهم في عداء المسلمين، واتفاق كلمتهم على محاربتهم والنيل منهم"[١].

ونراه يناقش رأي الألوسي في توجيه إفراد الأرض وجمع السموات، حيث يقول الألوسي "إذ جمع لنكتة سوغت العدول عن ذلك الأصل وهي الإشارة إلى تفاوتهما في الشرف، فجمع الأشرف اعتناء بسائر أفراده، وأفرد غير الأشرف، وأشرفية السماء لأنها محل الملائكة المقدسين على تفاوت مراتبهم ومعراج الأرواح الطاهرة"، يقول الدكتور الخضري: "إلا أن هذه النكتة غير مسلّم بها لأن القرآن أفرد الأشرف وجمع مقابله في قوله ﴿جعل الظلمات والنور﴾ ولا خلاف في شرف النور سواء أكان حقيقيا أم متجوزاً به عن الهداية والإيمان. ثم إن ابن كثير ذهب إلى عكس مذهب الألوسي فعلل جمع الظلمات والشمائل وإفراد النور واليمين بشرف المفرد"[٢].

٨. الاجتهاد في استجلاء التوجيهات التي لم يسبق إليها:

لم يكتفِ الدكتور الخضري بمناقشة آراء السابقين أو الميل إلى الراجح منها، وإنما كانت له لمحات فنية في استجلائه بعض الفروق الدقيقة في مشتبه النظم في الذكر الحكيم[٣]، فقد فتح الله على الدكتور الخضري بكثير من

---

[١]- المرجع السابق، ٥٠

[٢]- المرجع السابق، ٨٣

[٣]- سليم، حسن عبد الرحمن: جهود الدكتور محمد الأمين الخضري في خدمة قضايا الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ١٤٦٢

التوجيهات التي لم يسبقه إليها أحد. فمن ذلك قوله: "ومن دقيق الاختلاف في صيغ الجمع ما تراه في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ*أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾(الشورى ٤٩-٥٠) فقد عانيت كثيراً في البحث عن سر المغايرة في الصيغة بين الذكور والذكران مع أن اللفظين في دلالتهما على الكثرة سواء، ولم أجد لأحد ما يستفتح به علي. حتى وجدت مناسبة معنوية بنيتُها على ما استقر لدى فقهاء اللغة من أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فالذكران بما فيها من زيادة في الحروف لا بد أن تتبعها زيادة في الوصف أو في العدد، ولما كان كل من الذكور والذكران يتساويان في دلالتهما على الكثرة فلا مناص من القول بالزيادة في الصفة ليكون (الذكران) أدل على صفة الذكورة وتمكنها. وهو ما استدعاه المقام، حيث وقع الذكران عند الحديث عن التزويج بين الذكران والإناث، حتى يدفع الوهم بأن الحمل بذكور وإناث معا ربما يكون سبباً في إضعاف صفة الذكورة، فجاءت لفظة الذكران دالة على سعة علم الله وقدرته في الفصل بين المتجاورين كما يفصل بين ما ينبته في القطع المتجاورات، ومن ثم جاء تذييل الآية (إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ). فلما لم يكن اجتماع ذكر وأنثى في بطن واحدة ونموهما في رحم المرأة معاً، لم يحتج إلى المبالغة في الصيغة، واكتفى بصيغة الذكور في قوله: (يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ). ولمثل هذا السبب جاءت صيغة المبالغة (ذكران) في قوله تعالى مستنكراً ما يفعله قوم لوط: (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ) (الشعراء ١٦٥)، فقد بلغ النكر غايته حين كان إتيان هؤلاء القوم لمن هم في كمال الذكورة، حتى لا يتسرب إلى الوهم بأنهم كانوا يأتون

المخنثين من الرجال وأشباه الرجال، وليس لهم عذر في ترك ما خلق الله تعالى لهم من البديل الفطري الصالح للإتيان، لأن المأتي على النقيض مما أباحه الله لهم كمالاً في الرجولة والذكورة"[١].

٩. **الاستشهاد بالحديث النبوي والشعر العربي**:

كثيراً ما يدلل الدكتور الخضري على الظاهرة الأسلوبية في القرآن الكريم بنظائرها في الحديث النبوي الشريف والشعر العربي[٢]. فمن استشهاده بالحديث النبوي، ما جاء في كلامه عن عدم ورود صيغة الجمع (أرضين) في القرآن الكريم، موجهاً ذلك بأن القرآن آثر الإفراد لخفته، وتعليل ورودها في حديث النبي (صلى الله عليه وسلم): (طُوِّقَهُ من سبع أرضين يوم القيامة)، يقول الدكتور الخضري: "إنه عليه السلام لا مندوحة له عن الجمع إذ لو قال من الأرض لما دل على أنه يطوقها من السبع، فليس في الإفراد دليل على استغراقه للأرضين السبع، ... ثم إنه عليه السلام قصد إلى ثقل الجمع مع ثقل الفعل (طوّق) ... فكان ثقل الألفاظ متآخياً مع ثقل الجزاء وشدته"[٣].

ومن استشهاده بالشعر العربي قوله: "وللضيف صيغ جمع للقلة والكثرة، جاء في لسان العرب: وقد يكسر فيقال: أضياف وضيوف وضيفان. قال :

---

[١]- الخضري، محمد الأمين: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، مرجع سابق، ص ص ١٨٥-١٨٦

[٢]- سليم، حسن عبد الرحمن: جهود الدكتور محمد الأمين الخضري في خدمة قضايا الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ١٤٦٥

[٣]- الخضري، محمد الأمين: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، مرجع سابق، ص ٨٥

إذا نزل الأضياف كان عذورا على الحي حتى تستقل مراجله"[١].

١٠.الالتزام بالأمانة العلمية:

يلتزم الدكتور الخضري بالأمانة العلمية، فحين يفتح الله عليه بتوجيه لآية من آيات الذكر الحكيم، يبحث في كتب الأقدمين إن كان أحد قد سبقه إلى هذا التوجيه، فإن وجده أقر له بالسبق في تواضع واعتراف بالفضل. فمن ذلك قوله بعد أن ذكر ما فتح الله به عليه في توجيه جمع (الظلمات والصواعق) وإفراد (الرعد والبرق) في قوله تعالى:﴿أَو كَصَيِّب مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰت وَرَعد وَبَرق يَجعَلُونَ أَصَٰبِعَهُم فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِق حَذَرَ ٱلمَوتِ وَٱللَّهُ مُحِيطُ بِٱلكَٰفِرِينَ﴾(البقرة: ١٩)، يقول الدكتور الخضري: "ولو جمعت الرعود والبروق لكان من ضوئهما ما يقلل من تكاثف الظلمات. وحين وقعت على هذا الغرض من النظم حسبته ضرباً من السبق، حتى وجدت الشهاب الخفاجي قد سبقني إليه، فها أنذا أنسبه إلى صاحبه"[٢]. بل إنه يشير إلى من سبقه حتى لو كان ما قاله يقارب ما يقول به ولا يطابقه، كما في قوله: "وما قلتُه ليس ببعيد عما رآه الألوسي غرض إفراد القبلة"[٣]. وقد يكون ما قاله السابق إنما ورد في سياق آخر، كما في قوله عند توجيه إفراد (صالح المؤمنين) في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى ٱللَّهِ فَقَد صَغَت قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَولَىٰهُ وَجِبرِيلُ وَصَٰلِحُ

---

[١]- المرجع السابق، ص ٤٥

[٢]- المرجع السابق، ٣٨

[٣]- المرجع السابق، ٥٧

ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٞ﴾(التحريم: ٤). يقول الدكتور الخضري عن توجيه الزمخشري لإفراد (ظهير): "وقد ألمح صاحب الكشاف إلى أن إيثار الواحد في موضع الجمع يومئ إلى التوحد وشدة التناصر"[١]. ثم يقول عن استخدامه التوجيه نفسه في توجيه إفراد (صالح المؤمنين): "إن هذا هو ما نراه وننسب فضله إلى الزمخشري وإن لم يقل به قياساً على ما قال في إفراد "ظهير"[٢]. وفي هذا ما يدل على شدة احتراسه، وشدة محاسبته لنفسه ومدى حرصه وأمانته العلمية.

---

[١] – المرجع السابق، ٤٣

[٢] – المرجع السابق، ٤٤

الخاتمة

استعرضنا في الصفحات السابقة جهود الدكتور محمد الأمين الخضري، رحمه الله، في خدمة قضايا الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، من خلال كتابه: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ. وقد قدمنا في البداية نبذة مختصرة عن الدكتور الخضري، والتعريف بمؤلفاته التي كانت كلها حول الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ثم قدمنا عرضاً ملخصاً لكتابه: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، الذي يشتمل على أربعة فصول، هي: (١) وضع المفرد موضع الجمع، (٢) وضع الجمع موضع المفرد، (٣) تعاور الجموع مواقعها، (٤) تناسق الصيغ في مشتبه النظم.

ثم تناولنا أهم معالم منهج الدكتور الخضري في بحوثه المتعلقة بدراسة قضايا الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، وذكرنا منها:

١. اختيار الموضوعات الدقيقة التي تحتاج في دراستها إلى تأنٍّ وطول معايشة مع النص القرآني.
٢. البناء على ما قرره الأقدمون والانطلاق من حيث انتهوا إليه في دراساتهم.
٣. الاستعانة بالمنهج الإحصائي في تتبع المادة القرآنية.
٤. الاعتماد على السياق في بيان سر الاختصاص.
٥. الإشادة بجهود علماء البلاغة وأئمة اللغة في الكشف عن أسرار الإعجاز في النسق القرآني.
٦. الإشادة بجهود أئمة المفسرين الذين أفاد من توجيهاتهم كثيراً في بحوثه.
٧. مناقشة آراء السابقين، وبيان أوجه الاعتراض عليهم والميل إلى الرأي الراجح.

٨. الاجتهاد الشخصي في استجلاء بعض الفروق الدقيقة في مشتبه النظم في الذكر الحكيم.

٩. الاستشهاد على الظاهرة الأسلوبية بنظائرها في الحديث النبوي والشعر العربي.

١٠. الالتزام بالأمانة العلمية.

رحم الله الدكتور الخضري وأجزل له المثوبة وجعل ما قدمه في ميزان حسناته.

المصادر والمراجع:

- الخضري، محمد الأمين: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن الكريم، مطبعة الحسين، ١٩٩٣م
- الخضري، محمد الأمين: الإعجاز في نسق القرآن: دراسة للفصل والوصل بين المفردات، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٢م
- زنجير، محمد رفعت: مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن الكريم، الكتاب الثاني من سلسلة الدراسات القرآنية، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، دبي، ٢٠٠٨م
- سليم، حسن عبد الرحمن: منهج الدكتور الخضري في دراساته حول إعجاز القرآن الكريم، مجلة الأزهر، القاهرة، يناير ٢٠٢٠م
- سليم، عبد الرحمن حسن: جهود الدكتور محمد الأمين الخضري في خدمة قضايا الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، المؤتمر العلمي الدولي الثالث: دور الأزهر في النهوض بعلوم اللغة العربية وآدابها والفكر الإسلامي، مج ٢، ٢٠١٢م، الصفحات: ١٤٩٠-١٤٣١
- الشهري، محسن بن علي: قراءة في كتاب "الواو ومواقعها في النَّظْم القرآني" للدكتور محمد الأمين الخضري، موجود على الرابط (تاريخ الدخول: ٢٠٢١/١١/١٤م):

https://tafsir.net/article/5370/qra-at-fy-ktab-alwaw-wmwaq-ha-fy-an-n-nazm-al-qr-aany-lldktwr-mhmd-al-amyn-al-khdry

- عبد الباقي، محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٤هـ

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
ملخص البحث	١٩٥
مقدمة	١٩٦
المبحث الأول : سيرة علمية مختصرة للدكتور الخضري	١٩٨
المبحث الثاني : عرض ملخص لكتاب الدكتور الخضري: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن الكريم	٢٠٠
الفصل الأول : وضع المفرد موضع الجمع	٢٠٣
الفصل الثاني : وضع الجمع موضع المفرد:	٢١٠
الفصل الثالث: تعاور الجموع مواقعهااستعارة القلة للكثرة	٢١٦
الفصل الرابع: تناسق الصيغ في مشتبه النظم	٢١٨
المبحث الثالث : منهج الدكتور الخضري في دراساته حول إعجاز القرآن الكريم من خلال كتاب الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ	٢٢٠
الخاتمة	٢٣٨
المصادر والمراجع	٢٤٠
فهرس الموضوعات	٢٤١